مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٩/٢٠٠٨

الأحد ٢ آذار

أحد مرفع اللحم

تذكار القديس إيسيشيوس الشهيد

اللحن السابع

إنجيل السَحَر السابع

الرسالة

(١ كورنثوس ٨: ٨–١٣؛ ٩: ١–٣)

يا إخوةُ إنَّ الطعامَ لا يُقرِّبُنا إلى الله. لأنَّا إن أكلنا لا نزيدُ وإن لم نأكُلْ لا ننقصُ* ولكن انظُروا أن لا يكونَ سلطانُكم هذا معثَرَةً للضعفَاءِ* لأنَّه إن رآكَ أحدٌ يا مَن له العلمُ متَّكِئاً في بيتِ الأوثانِ أفلا يتقوَّى ضميرُه وهو ضعيفٌ على أكلِ ذبائحِ الأوثانِ* فيهلِكَ بسببِ علمِكَ الأخُ الضعيفُ الذي ماتَ المسيحُ لأجلِه* وهكذا إذ تُخطِئون إلى الإخوةِ وتجرَحون ضمائرَهم وهي ضعيفةٌ إنَّما تُخطئون إلى المسيح* فلذلك إن كان الطعامُ يُشكِّكُ أخي فلا آكلُ لحماً إلى الأبدِ لئلاَّ أُشكِّكَ أخي* ألستُ أنا رسولاً. ألستُ أنا حرًّا. أمَا رأيتُ يسوعَ المسيحَ ربَّنا. ألستُم أنتم عملي في الربّ* وإن لم أكُنْ رسولاً إلى آخرينَ فإنِّي رسولٌ إليكم. لأنَّ خاتَمَ رسالتي هو أنتم في الربّ.

أحد مرفع اللحم

تقيم الكنيسة في أحد مرفع اللحم تذكار مجيء المسيح الثاني، والقيامة العامة، والدينونة الأخيرة. وكتاب التريودي يذكّرنا في هذا اليوم بأنّ لتاريخ البشر غاية ونهاية، وأنّه مهما بدا للناس أنّ الشرّ يسود في العالم، فإنّ الله وحده يبقى الديّان العادل وسيّد الأحياء والأموات. هذا ويكتنف روحانيّة الصوم الأربعيني المقدّس بعامّة، وعي عميق للبعد الأخروي للحياة المسيحيّة. فإنّ كلّ يوم من أيّام الصيام وكلّ دعاء وطروبارية من صلوات هذه الفترة، إنّما تحثّ النفس البشريّة على التيقظ والتحلّي بالحرارة والاندفاع الروحيين عبر تذكّر دنو منتهى الأزمنة.

قد يبدو زمان حياة الإنسان، إذا ما تأمّلنا يوميّاتنا بموضوعيّة، واقعاً تاريخيّاً عبثيّاً، تسوده الخطيئة والشرّ. الشرّ يتفاقم على سائر الأصعدة في حياتنا. وكأنّ الناس فقدوا الأخلاق والقيم وثوابت الخير والفضيلة التي وطّدت مجتمعاتنا جيلاً بعد جيل. كأنّهم أنكروا الله وأقاموا شهواتهم آلهة يسجدون لها النهار والليل . «لأنّهم لمّا عرفوا اللهَ لم يمجّدوه أو يشكروه كإله بل حمِقوا في أفكارهم وأظلم قلبُهم الغبيُّ» (رو ١:٢١). ولكنّ الكنيسة تدعونا إلى غير هذا. الإنجيل، والعبادات المسيحيّة، وكتابات الآباء القدّيسين تؤكّد كيف أنّه منذ الآن، وفي عتمة الليل وادلهمامه، يلوح للمجاهدين محبّي المسيح ضياءُ «شمس العدل» الآتي، منيراً قلوب محبّيه، ومستبقاً يوم مجيئه، حين سيسطع بكلّ مجده. ساعةُ مجيء المسيح حاضرة منذ الآن لأنّ «ملكوت اللهِ داخلَكم» (لو ١٧: ٢١).

وكتاب التريودي يختصر الزمان التاريخي لحياة كلّ منّا، مدخلاً إيّانا إلى زمن ليتورجي تظلّله النعمة الإلهيّة، حيث يحصل الاستعداد والاستباق للقيامة العامّة بحال مستمرّة. العبادة المسيحيّة تدخلنا في زمن الملكوت. وهذه النعمة توافي الكنيسة من المسيح الحاضر في وسطها، والآتي، في الوقت ذاته، ليكمّل الأزمنة ويمنح حياتنا المعنى الحقّ، ووجودنا الغاية الأسمى: أي الاتحاد به في المعموديّة، والموت عن كلّ خطيئة، لنقوم في مجده بجسم متجدّد بالنعمة الإلهيّة وفي نور لا يعروه مساء. فوقت حياتنا، الزمان الذي نعيشه، ليس مجرّد مسافة

الإنجيل

(متى ٢٥: ٣١–٤٦)

قال الربُّ متى جاءَ ابنُ البشرِ في مجدهِ وجميعُ الملائكةِ القديسين معه فحينئذٍ يجلسُ على عرشِ مجدهِ* وتُجمَعُ إليهِ كلُّ الأُممِ فيميّزُ بعضَهم من بعضٍ كما يميّزُ الراعي الخرافَ من الجداءِ* ويُقيم الخرافَ عن يمينهِ والجداءَ عن يسارهِ* حينئذٍ يقولُ الملكُ للذينَ عن يمينهِ تعالَوْا يا مباركي أبي رِثوا المُلكَ المُعَدَّ لكم منذ إنشاءِ العالَم* لأنّي جُعتُ فأطعمتموني وعطِشتُ فسقيتموني وكنتُ غريباً فآويتموني* وعُرياناً فكسَوتموني ومريضاً فعُدْتُموني ومحبوساً فأتيتم إليَّ* حينئذٍ يُجيبه الصِدّيقون قائلين يا ربُّ متى رأيناك جائعاً فأطعَمناك أو عطشانَ فسقيناك* ومتى رأيناك غريباً فآويناك أو عُرياناً فكسوناك* ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك* فيُجيبُ الملكُ ويقولُ لهم: الحقَّ أقول لكم بما أنّكم فعَلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاءِ الصغارِ فبي فعلتموهُ* حينئذٍ يقول أيضاً للذين عن يسارهِ اذهبوا عنّي يا ملاعينُ إلى النارِ الأبديَّةِ المُعَدَّةِ لإبليسَ

زمنيّة نعبرها في عمرنا من غير هدف أو معنى، بل هو عطيّة إلهيّة، وسلّم نصعدها لنرتقي إلى جبال نواميس الربّ وإلى لقياه في مجد مجيئه.

يعلّمنا تقليد الكنيسة الشريف أنّ ظهور المسيح الأخير سيكون رهيباً، بل أكثر رهبةً من ظهور الإله لموسى قديماً على جبل سيناء. لأنّ البشر ساعتئذٍ يعاينون، وجهاً لوجه، من رأى موسى ظهرَه فحسب (خر ٣٣: ٢٣). الموتى سيقومون، والكلّ سيجمعهم الرب عند صوت البوق الأخير، ليُدانوا حسب أفعالهم ومقاصدهم. كلّ الخفايا تُكشف، وكلّ الحقائق تستعلن، لأنّ محبّة الله وحدها تملك، فلا يشارك في الملكوت سوى الصديقين ومن استعدّوا، بأعمال التوبة والصلاح والصدقة، ليقفوا، «لدى منبر المسيح المرهوب»، «بجواب حسن» ودالّة.

القديس غريغوريوس بالاماس يقول إنّ «الرحمة»، في تدبير الله للتاريخ، «تسبق العدالة». فالله الكلّي الرأفة وهبنا زمان حياتنا هذا أواناً للعودة إليه والتنقّي والارتقاء بالنعمة إلى كمال المحبّة. أمّا يَوْمَ يُطِلُّ على البشر في مجيئة الثاني، فساعتئذٍ يحكم بالعدل والإنصاف، ولا تكون رحمة لمن لم يصنع الرحمة أو يتب عن الشرور التي اقترفها. المسيحي التائب يذرف الدموع في الوقت القصير الذي في متناوله، ليستبق الدينونة الأخيرة بأنِ يدين هو نفسه في هذه الحياة، متذكراً قول الكتاب «طوباكم أيها الباكون الآن لأنّكم ستضحكون» (لو ٦: ٢١).

إن تراتيل الصوم الكبير تؤكّد جدّيّة ما يختصّ برهبة الدينونة لتحثّ المؤمنين على التوبة. الأمر لا يتعلّق «بلهجة دينيّة ترهيبيّة»، بل بمنهاج الكنيسة التربوي الذي ينشئ الإنسان على مواجهة الواقع وحفظ وصايا الإنجيل بالرصانة الملائمة. فإنّ آباء الكنيسة يلاحظون كيف أنّ تذكّر ساعة الموت لا يضرّ المسيحي في شيء، بل يصحو إلى نفسه، ويصعّد الجهاد الروحي من أجل اقتناء الفضائل الشريفة، مضاعِفاً تعلّقه بالمسيح الواهب الحياة. هنا يكمن الزخم الروحي لفترة الصيام: قبل أن يبلغ موسم التوبة نهايته وتُقفَل أبواب خدر الختن، يسارع المسيحي إلى الطريق المؤدّية إلى الفردوس، أي الصوم الذي يرافقه الاعتراف والتخشّع وأعمال الرحمة. وقد يعبر المؤمن، في هذه الأيّام، تجارب التوبة المنقية، فيعتمد «بالروح القدس والنار» (لو ٣: ١٦)، ليبلغ يومَ القيامة ناصع البياض مستنيراً بالربّ يسوع المشرق للمؤمنين من القبر.

إنتظار مجيء الرب، والذي يدرّبنا عليه أحد مرفع اللحم، يبلغ أوجه عند دخولنا الأسبوع العظيم المقدّس في صلاة الختن. المسيح «الختن يأتي في نصف الليل» لينير نفوس المؤمنين الذين ينتظرونه بأمانة وشوق، ويُدخِل، من «يجده مستيقظاً»، إلى خدره السرّي.

الصلاة والصوم

«أمَّا هذا الجنسُ فلا يخرجُ إلاَّ بالصلاةِ والصومِ» (متى ١٧: ٢١).

يخبرنا الإنجيلي متى عن رجل قدّم إبناً له به شيطان إلى رسل المسيح، فلم يستطيعوا أن يشفوه، وبعدما شفاه يسوع سأله تلاميذه عن سبب عدم قدرتهم على ذلك، فقال لهم: «أمَّا هذا الجنسُ فلا يخرجُ إلاَّ بالصلاةِ والصومِ». ونقرأ في كتاب «أعمال الرسل» في العهد الجديد أن الرسل، عندما همّوا بإطلاق برنابا وشاول (الذي صار اسمه بولس الرسول فيما بعد) «صاموا حينئذٍ وصلّوا ووضعوا عليهما الأيادي» (أع

وملائكَتِهِ* لأنّي جُعتُ فلم تُطعِموني وعطِشتُ فلم تَسقوني* وكنتُ غريباً فلم تُؤووني وعُرياناً فلم تَكسوني ومريضاً ومحبوساً فلم تَزوروني* حينئذٍ يُجيبونهُ هم أيضاً قائلين يا ربُّ متى رأيناك جائعاً أو عطشانَ أو غريباً أو عُرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نَخْدِمْكَ* حينئذٍ يُجيبُهم قائلاً الحقَّ أقولُ لكم بما أنَّكم لم تفعلوا ذلك بأحدِ هؤلاءِ الصغار فبي لم تفعلوهُ* فيذهبُ هؤلاءِ إلى العذابِ الأبدي والصِدّيقونَ إلى الحياةِ الأبديَّة.

تأمل

إن الخراف، أي الذين أثمروا ثماراً جيّدة، الناس الصالحين الذين عرفوا الراعي الصالح، وحافظوا على ختمه غير مشوّه، وتبعوه بعد أن قال: تعالوا ورائي يا من لم تدّنسوا الإيمان مع الهراطقة، تلك الخراف سوف يجعلها عن يمينه. أمّا الجداء، أي الناس غير المثمرين، الذين لم يرضوا راعيهم بل جلسوا مع الهراطقة ودنّسوا الإيمان المقدّس، الذين ساروا سيرة غير لائقة، وعاشوا في تنعّم الحياة، ورقصوا ومارسوا شرور الحياة، وخرجوا عن القانون الموضوع،

١٣: ٣) كما فعلوا بعدها عند انتخاب قسوس (كهنة) الكنيسة «ثمَّ صلَّيا بأصوام» (أع ١٤: ٢٣).

النقطة الأولى التي سننطلق منها في هذه المقالة أن الصوم ملاصق حكماً للصلاة؛ لا صوم بلا صلاة، كما لا صلاة بدون صوم. الإنسان يحيا بالطعام، فيما يعلّم الإنجيل أن الطعام الحقيقي هو يسوع المسيح نفسه: «أنا هو خبزُ الحياة» (يو ٦: ٣٥) لأنه هو «خبز الله النازل من السماء الواهب حياةً للعالم» (يو ٦: ٣٣).

لماذا يسوع هو «خبز الحياة»؟ لأن الرب، بطاعته لأبيه حتى الموت، صار هو المثال المقدّم لنا في كل شيء. هو القائل: «طعامي أن أعمَلَ مشيئةَ الذي أرسلني وأُتمِّمَ عملَه» (يو ٤: ٣٤). يجب أن لا ننسى، في هذا الإطار، أنّ ربّنا نفسه صام أربعينَ نهاراً وأربعينَ ليلةً (متى ٤: ٢)، الذي تقول عنه صلواتنا أنه «علّم وأبان الأقوال بالمثال»، معطياً إيانا ذاته كمثال لنا. كما أن إنجيل يوحنا يخبرنا أن المسيح كان يصلّي باستمرار. هذان الجناحان ضروريان للتحليق في فضاء الروح، للتحليق الروحي بغية الاقتراب من الرب؛ واحد منهما لا يكفي، كما أن جناحاً واحداً لا يمكّن الطير من الطيران. وللتذكير، نشير إلى أننا دائماً نطلب «الخبز الجوهري» في الصلاة الربيَّة: «خبزنا الجوهري أعطنا اليوم»، وهي الصلاة التي علّمنا إياها يسوع. الخبز الجوهري في التفسير الأرثوذكسي لا يشير فقط إلى الطعام المادي بل إلى يسوع نفسه الذي نتناوله في القداس الإلهي تحت شكل الخبز والخمر اللذين يستحيلان إلى جسد الرب ودمه.

النقطة الثانية هي أن الصيام، إلى جانب كونه جهداً فرديّاً، هو عمل جماعي. الكنيسة هي التي تصوم كجماعة. هذا واضح جدًّا في كتاب أعمال الرسل. الرب نفسه، في الموعظة على الجبل، يشير إلى هذا، فهو يقول لنا «متى صمتم» ثم يدل إلى كل منا بمفرده بقوله «أما أنت فمتى صمتَ» (متى ٦: ١٦–١٧). الصيام يحصل من قِبَل الفرد في الجماعة ومع الجماعة. هذه النقطة هامة جداً في فهمنا لانتمائنا الكنسي. أنا مسيحي لأنني أنتمي إلى المسيح في الكنيسة التي لا انتماء للرب خارجها. هذا البُعد الجماعي غائب كثيراً اليوم في مقاربة الكثيرين لمفهوم الصيام. فكثيراً ما نسمع أن فلاناً يصوم بالطريقة التي يرسمها هو لنفسه، كأن يمتنع عن أمر ما «لأنّه يحبُّه». هذا طعنٌ بمبدأ الصوم. أنا لا أستطيعُ فعل ذلك لأنني أصوم داخل جماعتي ومعها، والقانون الذي أتّبعه هو من عمل الكنيسة التي، باختبارها الروحي، رسمت قواعد معيَّنة وجدت فيها طريقة فضلى لممارسة الصيام. فالطاعة هي إحدى ركائز الصيام، لا بل إحدى دعائم الانتماء إلى الكنيسة وإلى رب الكنيسة. الطاعة لله، بالمطلق، قد تكون هيّنة، ولكن الطاعة لقانون الجماعة أصعب لأن الأنا ستقفز إلى الواجهة وتقول لي: «ولماذا تطيع ما وضعه بشرٌ مثلك»؟ طِعْ قانونك أنت. هذا غير صحيح. الطاعة التي تقدّس الإنسان هي لغيره ممَّن فاقوه بالقامة الروحيَّة، وعليه أن يعترف بذلك بتواضع. أنا أطيع قانون الكنيسة لأني لا أتقدّس إلاّ في الكنيسة، وأطيع القانون كغيري لكي أكون صائماً معهم ومثلهم بدون مجادلة عقيمة، كاحتجاج كثيرين أن «ليس ما يدخلُ الفمَ يُنجِّسُ الإنسانَ بل ما يخرُجُ من الفم هذا يُنجِّسُ الإنسانَ» (متى ١٥: ١١) كما قال الرب يسوع. ألم يعلم المسيح أن لهذا القول مدلولاً آخر، وإلاّ لماذا صام هو، ولماذا أوصى

وتغرّبواعن كل عمل صالح وامتلأوا بذلك من كل خطيئة فيرى الرب كل ذلك في تلك الساعة ويحوّل نظره عنهم.

عندئذ يقول للجالسين عن يمينه: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم. تعالوا يا أبناء النور، تعالوا يا وارثي ملكوتي، تعالوا أنتم الذين جعتم وعطشتم من أجلي ولم تحبّوا العالم وما في العالم، تعالوا يا من تركتم العالم وأهلكم وأصدقاءكم...، تعالوا يا من سلكتم البراري والجبال والمغاور وثقوب الأرض اسكنوا الآن مع الملائكة في السموات».

وكذلك يقول للذين عن يساره: «اذهبوا عني يا ملاعين والمزدرى بهم، لأنكم لم ترحموا الإخوة بل ازدريتم بهم وبالمسيح. لم ترحموا الفقراء، لذلك لن تُرحموا. لم تريدوا سماع أقوال الإنجيل، وتلاميذي، لذا لن أسمعكم. لقد عشتم في التغرّب وتمتعتم بملذات الحياة بينما أنا أصرخ في كل يوم عبر الكتب المقدّسة. سمعتم كل ذلك وضحكتم وأنا أذكركم به. لذلك أقول لكم الآن: لا أعرفكم، اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعَدَّة لإبليسَ وملائكته (متى ٢٥: ٤١). فيذهب هؤلاء إلى الهلاك الأبدي.

القديس افرام السرياني

بالصيام؟ هذه فلسفة ناجمة عن الأنا وليس عن الله. إذاً يجب على المرء أن يصوم، وأن يصوم كما تصوم الجماعة. الجماعة هي الكنيسة، والإنسان، إذا اخترع قانوناً لنفسه يكون كمن يُنشئ كنيسة مكوَّنة من عضو واحد (هو) فيما يكون بهذا العمل قد انسلخ عن الجماعة التي كثيراً ما يتشجع كثيرون بالإنتماء (الطائفي) إليها.

النقطة الثالثة هي أن مبدأ الصيام ليس في الإمتناع عما أحب، بل الإمتناع عن المآكل التي تنهاني عنها أمي، أي الكنيسة، لأن هذا التدريب، المتلازم أبداً مع الصلاة، نافع، حسب خبرة الأتقياء والقديسين. لست أنا مَن يقرِّر بل الكنيسة (وهو ما سنفصّله لاحقاً). كما أن الصيام ليس «إماتة»، وهذا يستتبع القول أني لا أمتنع عما أحب. لأن الصوم، بحسب تعبير لاهوتي كبير من القرن الماضي، الأب ألكسندر شميمين، هو «الحزن البهي»، أي أن الفرح هو المبدأ الأساسي للصوم، ولكن الفرح الناجم عن الامتناع عن المأكل بغية الإمتلاء من الله. (طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني). مبدأ «الإماتة» هو مبدأ بشري، ونحن، بحسب الكتاب المقدّس مدعوون إلى إماتة «الأنا»، فيما هذا المفهوم للإماتة هو إحياء للأنا، أنا أقرر.

هدف الصيام هو استرجاع الدالة التي أبتغيها مع الله؛ فآدم قد طُرد بواسطة الأكل من الفردوس وأنا، بالإمتناع عن الأكل، ألتمس الرجوع إليه، لا بل الرب، بالصليب والقيامة سيرفعني إلى يمين ابيه (وصُلب عنّا... وجلس وأجلسنا معه عن يمين الآب كما نقول في دستور الإيمان). هدف الصيام ليس الإماتة بل الإحياء، ليس النَّوْح بل الحزن على الخطيئة ابتغاء للتوبة. ليس النزول بل الصعود.

محاضرات

بمناسبة الصوم المبارك تدعو رعية كنيسة القديس نيقولاوس – الأشرفية لحضور سلسلة المحاضرات التالية التي ستقام عند الساعة السابعة من مساء كل خميس من أسابيع الصوم المبارك، بعد صلاة النوم الكبرى.

+ الخميس ١٣ آذار ٢٠٠٨

«الكنيسة والشهادة» لقدس الارشمندريت توما (بيطار).

+ الخميس ٢٠ آذار ٢٠٠٨

«الدخول من الباب الضيق» لقدس الارشمندريت بندلايمون (فرح).

+ الخميس ٢٧ آذار ٢٠٠٨

«هدف حياة الإنسان ومعناها» لقدس الارشمندريت أفرام (كرياكوس).

+ الخميس ٣ نيسان ٢٠٠٨

«الوصية الأولى والثانية» للأم مريم (زكا).

+ الخميس ١٠ نيسان ٢٠٠٨

«الصعوبات التي يواجهها المؤمن أمام محبة الله في العالم» لقدس الأب منيف (حمصي).

+ الخميس ١٧ نيسان ٢٠٠٨

صاحب السيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb